



حجاج التذليل في خطاب التنزيل مقارنة جمالية في سورة يوسف

الأستاذ المساعد الدكتور

مهند مرموص عبود

كلية الآداب / الجامعة العراقية

Muhannadabbod5@gmail.com



*Hajjaj AL-Tathyeel fi Khtaab AL-Tanzeel aesthetic approach
in Surat Yusuf*

Asst. Prof. Muhannad Marmous Abboud (Ph.D.)

College of Arts / AL-Iraqia University



المستخلص

يكشف البحث أنماطا حجاجية متنوعة في خطاب البيان الأعلى تسهم في فنون قولية ، ومذاهب كلامية على سبيل الجاج والافتناع ، سالكة سبيل التذييل الذي تستسيغه السنة العوام في مخاطباتهم الدارجة يعينهم على الفهم والافهام مبدأ التعاون المشترك من خلفيات معرفية متمركزة في اضمارات مسبقة ، ومسلمات متداولة تضي على النتائج حلولة ، وعلى الأثر طلاوة ، وتضمن تواصلا أوسع بين المتخاطبين ؛ ليثبت للمتلقى خطاب القرآن المتجدد ، الذي يلائم الزمكانية ، ويلبي حاجاتها .

الكلمات المفتاحية: خطاب , حجاجية , القرآن

Abstract

The research reveals various argumentative patterns in the discourse of the supreme statement that contribute to verbal arts and verbal doctrines as a matter of argument and persuasion, traversing the path of appendix that is palatable by the tongues of the common people in their vernacular discourses. The result is sweetness, and the effect is sweetness, and it ensures wider communication between the interlocutors; To prove to the recipient the renewed discourse of the Qur'an, which fits the spacetime, and meets its needs.

Keywords: Discourse, Argumentative and Qur'an

تأسيس

يتسم الحجاج في خطاب البيان الأعلى بخصوصية تميزه عن أنساق خطابية أخرى ؛ فإذا كان في الشعر والنثر (موضع الكلام على الافهام فالواجب أن تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس ، فيخاطب السوقي بكلام السوق ، والبديوي بكلام البدو ، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه ، فتذهب فائدة الكلام ، وتعدم منفعة الخطاب)^(١) بيد أن القرآن الكريم شذب قتادة اللفظ ، وهذب قوام المعنى ؛ فهو خطاب لكل زمان ومكان ، بالوقت الذي يتفق فيه مع سائر الحجاج في الغاية والمقصد من فهم وإفهام ؛ لأن مدار الامر على الافهام والتفهيم^(٢) ؛ وهما مشروع بلاغي لا خلاف فيه ، ومفهوم اجرائي لا مناص عنه ؛ أما الافهام فلا تقوم وظائف الخطاب بدونه فهو شرط في تعميق التواصل الناجح بين المنتج والمتلقي^(٣) ، وإما التفهيم فهو وظيفة حجاجية اقناعية لها سلطانها في استمالة السامعين ، وهو شرط لازم في التواصل البياني الذي يروم الاقناع^(٤) ، وبما ان التذييل آلية من آليات الحجاج التي يقصد إليها المتكلم ليتحقق فيه ما قبله من الكلام، وهو أن يذيل المتكلم كلامه بجملة وتلك الجملة تخرج مخرج المثل السائر ليحقق به ما قبله^(٥)، وجدت سورة يوسف خير مضمار لهذا الحد ؛ إذ لا توازيها - بحسب ما اطلعت - سورة أخرى بهذا النوع من حجاج التذييل ، ألا وهو التذييل الذي سار مسرى المثل ، فقد يقف المتأمل على أحد عشر موضعا في السورة الكريمة مما سيق بنصه مقتبسا من خطاب التنزيل ، وثمة مواضع أخرى استقت مضمونها من النص الشريف بيد أن؛ اسلوبية خطابها دارجة ، وسأقف بإذن الله على هذه المواضع بنوعيتها ، كاشفا عن مقارباتها الجمالية التي تعد سببا في تداوليتها انطلاقا من البلاغة المعيارية مرورا بالنظريات الحجاجية .

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَاءُ وَعَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۚ

فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۗ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ يوسف: ١٨

نسمع قوله تعالى (صبر جميل) مجتزأ من نصه حالما يمر أحد أطراف الحوار برزه أو ضنك ، ظاهر هذا النص أنه تذييل لحوار يطول فيه بسط الألم ، ليكون دليلاً على نهايته ، عطفاً على نهاية ألم سيدنا يعقوب عليه السلام الذي رد الله بصره وولده يوسف عليه السلام ؛ لذا نستطيع القول أن أحد أسباب سيرورة النص ، هو التفاوض والتأمين . وليس هذا فحسب ، لأنك إذا أرجعت النص إلى سياقه ستجد من المقاربات الجمالية ما تسهم في تصديره ، وكثرة استعماله .

أولاً : منطلقات حاجية : لتحقيق الاقتناع يستخدم المتكلم في سياق حاجه مقدمات يبني عليها استدلاله ومن أهم هذه المقدمات (الوقائع)^(٦) التي تمثل مفاهيم مشتركة بين جمع من الناس ، ولا شك أن الصحراء والذئب وقائع منطقية ومستساغة تصلح لتكون منطلقات حاجية ، يبني عليها أخوة يوسف مؤامرتهم

ثانياً : المسار الحجاجي : في قولهم (على قميصه) دليل كذبهم ؛ عبر عنه القرآن الكريم ، فالدم الذي يخرج من الجسد المجروح يكون من الداخل الى الخارج ، ولو كان قميص يوسف كذلك لعبر عنه البيان الاعلى بحرف الجر (في أو ب) وهو الانسب لغويا أما حرف الجر (على) دليل انهم وضعوا الدم من الخارج ؛ وعليه ناسبه قول يعقوب عليه السلام (والله المستعان على ما تصفون) كما ناسب بداية الاية الكريمة) دَمٍ كَذِبٍ ذِي كَذِبٍ . أو وصف بالمصدر مبالغة، كأنه نفس الكذب وعينه، كما يقال للكذاب: هو الكذب بعينه)^(٧)

ولا يخلو النص من مفارقة أسلوبية تفضي إلى الماحة تربوية متمثلة بجمع النقيضين

؛ فكيف يكون الصبر جميل ؟

يرى بعضهم بونا بين الصبر والصبر الجميل ؛ فالثاني يكون بلا شكوى للبشر ودليله (

إنما أشكو بثي وحزني إلى الله)^(٨)

وأخرى جمالية متمثلة ب(مراعاة النظر) بين المقولات والنتائج ، وهو المناسبة بين

طرفي الكلام ، أو أن يختم الكلام بما يناسب أوله^(٩) ، فقوله (بدم كذب) بالمصدر

ينظره قوله (صبر جميل) كذلك بالمصدر .

ومثلها الملائمة والتوفيق^(١٠) بين الصبر والجمال ؛ ومثل هذه المواقف تكون صعبة

وتتطلب الشفقة؛ لأن مَنْ يمر بها يحترق بين أمر يتطلب القسوة وموقف يتطلب الرحمة؛

وكيف يجمع إنسان بين الأمرين^(١١) ، ففي الحاق الجمال بالصبر تعبير عن موقف

سيدنا يعقوب بين الشفقة على أولاده والعقاب لأنهم جناة .

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ

إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يوسف: ٢٨

من الحجج المنطقية التي يذيل بها وصف مكيدة محكمة للنساء (إن كيدهن عظيم)

عن بعض العلماء إنني أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان لأن الله تعالى

قال إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا وقال لهنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ^(١٢) ، (ولأن الشيطان

يوسوس مُسَارِقَةً وهن يواجِهْن به الرجال)^(١٣)

، وقولي حجاج منطقي ؛ لأنه يعتمد في قوته الاقناعية على قانون التناقض وعدم

الاتفاق^(١٤) ؛ والقصد منه وجود قضيتين احدهما تنفي الاخرى :

القضية الأولى : (ان كان قميصه قد من قبل فصدقت)

القضية الثانية : (ان كان قميصه قد من دبر فكذبت)
عرضهما في سياق متصل بسبب تبني إحداهما وطرح الأخرى ؛ إذ عدم الاتفاق بين
القضيتين مجاله حاجي صرف (١٥) يثبت براءة يوسف عليه السلام

التكليف الحاجي :

يقوم التكليف الحاجي على استحضار المعطيات واستعمال النعوت والصفات ، كما
جاء في النص الكريم (إن كيذك عظيم) والقصد من ذلك ترسيخ الصفة للتنبية على
أن ذلك خُلِقَ لهن عريق ... (الطويل)
ولا تحسبا هندا لها الغدر وحدها ... سجية نفس كل غانية هندا (١٦) ...

وفضلا عن ذلك فإن اثاره الحدث حضوريا في ذهن المتلقي قد يستعين بالألفاظ العامة
بدل الخاصة (١٧) (وتعميم الخطاب للتنبية على ان ذلك خلق لهن عريق) (١٨) أي :
مِنْ كَيْدِكُنَّ الْمَعْهُودِ مِنْكُنَّ مَعْشَرَ النِّسَاءِ . فَهُوَ لَمْ يَخْصَّ الْكَيْدَ بِرَوْحِهِ فَيَقَالُ : إِنَّهُ أَمْرٌ شَادُّ
مِنْهَا يَجِبُ التَّرْوِي فِي تَحْقِيقِهِ بِأَكْثَرِ مِمَّا شَهِدَ بِهِ أَحَدُ أَهْلِهَا ، وَهُوَ لَا يُتَّهَمُ فِي التَّحَامُلِ
عَلَيْهَا وَظُلْمِهَا ، بَلْ هُوَ سُنَّةٌ عَامَّةٌ فِيهِنَّ فِي التَّقْصِي مِنْ حَظِيئَاتِهِنَّ ، فَقَدْ أَتَبَتَ حَظِيئَتَهَا
مُسْتَدِلًّا عَلَيْهَا بِالسُّنَّةِ الْعَامَّةِ لِهِنَّ فِي أَمْثَالِهَا (إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) لَا قِبَلَ لِلرِّجَالِ بِهِ ، وَلَا
يَفْطِنُونَ لِحِيلِكُنَّ فِي دَقَائِقِهِ .

قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : وَلِرَبَاتِ الْقُصُورِ مِنْهُنَّ الْقَدْحُ الْمُعْلَى مِنْ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهِنَّ أَكْثَرُ تَقَرُّعًا
لَهُ مِنْ غَيْرِهِنَّ ، مَعَ كَثْرَةِ اخْتِلَافِ الْكَيْدَاتِ إِلَيْهِنَّ (١٩)
وَهَذَا الْأُسْلُوبُ مِنَ الْخِطَابِ يُسَمَّى بِالْإِقْبَالِ ، وَقَدْ يُسَمَّى بِالِالْتِمَاتِ بِالْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةِ عِنْدَ
الِالْتِمَاتِ الْبَلَاغِيَّةِ ، وَهُوَ عَزِيزٌ فِي الْكَلَامِ الْبَلِيغِ . وَمِنْهُ قَوْلُ الْجَرَمِيِّ مِنْ طَيِّ مِنْ شُعْرَاءِ
الْحَمَاسَةِ :

إِحَالِكَ مُوعِدِي بِنِيِّ جُفَيْفٍ ... وَهَالَةَ إِنِّي أَنَّهُكَ هَالَا
قَالَ الْمَرْزُوقِيُّ فِي «شَرْحِ الْحَمَاسَةِ» : وَالْعَرَبُ تَجْمَعُ فِي الْخِطَابِ وَالْإِخْبَارِ بَيْنَ عِدَّةٍ
ثُمَّ تُقْبَلُ أَوْ تُلْتَفَتُ مِنْ بَيْنِهِمْ إِلَى وَاحِدٍ لِكَوْنِهِ أَكْبَرَهُمْ أَوْ أَحْسَنَهُمْ سَمَاعًا وَأَخْصَهُمْ
بِالْحَالِ. (٢٠)

تقنية اللاحاح والتركيز الحجاجي :

لرفع درجة حضور المعطى في ذهن المخاطب توخيا للتأثير عليه ، لا بد من عرض
المشهد المتضمن (زمان ومكان وأحداث) على تقنية اللاحاح والتركيز (٢١) المشهد
الأول : (استبقا الباب) يدل على سرعة المشهد نزع الخافض
فأوصل الفعل إلى المفعول بدون «إلى» ، دليلاً على أن كلا منهما بذل أقصى جهده
في السبق، فلحقته عند الباب الأقصى مع أنه كان قد سبقها بقوة الرجولية وقوة الداعية
إلى الفرار إلى الله (٢٢) هذا للهرب منها، وهذه لمنعه،

المشهد الثاني :وقدت قميصه من دبر وهذا المشهد ربما يبرر قوله (من الخاطئين)
وليس من الخاطئات وجل من وجه الخطاب يراه من باب التغليب ، والذي أراه أن صفة
الدهم والضراوة في التعبير عن الشهوة ، لا يمكن أن تناسب النساء بأي شكل من
الاشكال وعليه جاء الخطاب (الخاطئين) بالتنكير ليناسب المشهد .أن هذه القصة
بتفاصيلها ما ان تذكر (إن كيدكن عظيم) حتى تعرض تلقائياً في ذاكرة المتلقي
،مكتملة الاركان من زمان ومكان وأحداث ، برغم أنها مشاهد متتالية وسريعة .

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَأَوْتَنِّي يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ لَنْ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَأَوْتُهُ عَنِ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ يوسف: ٥١

جارية في مفاد اظهار وجه الحق بعد صراع مع وجوه الباطل (الآن حصص الحق) ولا تساق في مطلع الحجاج ؛ بل تسبقها مقدمات وبراهين تدل على صواب ما ذهب إليه قائلها ضمن ما يسمى ب(الآلية التداولية الحجاجية) :
 لقد بدأ الملك بفعل انجازي ؛ وهو الاستفهام (ما خطبك) ؟ وقوته الانجازية تكمن في إرادة الانكار والتهمك ، والجمع بقوله (راودتن) مع علمه أن التي راودت هي واحدة ؛ وهي امرأة

والقصد من ذلك أن ينتزع الاجابة من النسوة ، فجمع الملك النسوة وامرأة العزيز معهن ، وقال لهن: ما خَطْبُكُنَّ ... الآية، أي: أي شيء كانت قستكن؟ فهو استدعاء منه أن يعلمنه القصة فجاوب النساء بجواب جيد، تظهر منه براءة أنفسهن جملة وأعطين يوسف بعض براءة، وذلك أن الملك لما قرر لهن أنهن راودنه قلن- جوابا عن ذلك- حاشَ لِلَّهِ وقد يحتمل- على بعد- أن يكون قولهن حاشَ لِلَّهِ في جهة يوسف عليه السلام،^(٢٣) وهذه طريقة حجاجية معلومة تسمى (الخفض) مفادها : أن يعمد المتكلم إلى سلم حجاجي يحوي مجموعة من المقدمات التي تتراصف في سبيل نتيجة واحدة^(٢٤) :

مقولة ١ : (قلن حاشا لله)

مقولة ٢ : (ما علمنا عليه من سوء)

مقولة ٣ : (الآن حصص الحق)

المقولات المذكورة متكاملة ومتسلسلة لتؤدي إلى نتيجة واحدة فيها براءة يوسف عليه السلام

(وإنه لمن الصادقين) . وعليه فالحجاج سلك أسلوبا (اقتضائيا) (٢٥) يقتضي أن النسوة ارتكبن ذنبا ، مع أن المعني في الخطاب امرأة العزيز دل على ذلك مقدمتين لمتلقي واحد

المقدمة الكبرى (الآن حصص الحق) بعد اعتراف النسوة وتبرئة يوسف عليه السلام .

المقدمة الصغرى (أنا راودته عن نفسه) تؤدي الى نتيجة يطلبها الملك من الاضمارات المسبقة (إنه لمن الصالحين) .

ومن أسباب التذييل في (حصص) أنها من الألفاظ الموحية بالمعنى : أي أنها تصنع صورة شاخصة بمفردها دون الحاجة الى الإسناد ، وهذا ضرب من تناسق التصوير ، والذي يزيد من قيمة هذا التصوير ، أنه قائم بذاته بلا متمات ، معتمد على جرسه الذي يلقيه في الأذن (٢٦) من تكرار محمود لحرفين في كلمة واحدة ، و تارة بظله الذي يلقيه في الخيال

حيث يصور لك ظهور بعد غياب لوجه الحقيقة قال الزجاج: اشتقاقه في اللغة من الحصة أي: بانث حصة الحق وجهته من حصة الباطل ومن جهته(٢٧)

قَالَ الشَّاعِرُ : (الطويل)

(ألا مبلغ عني خدasha بأنهُ ... كذوب إذا ما حصص الحق ظالم) (٢٨)

لقد انمازت الصورة المفردة بمقابلات دقيقة أسهمت في تعظيم الصورة الفنية ، وتسببت في سيرورتها ، وهي على نحو مما هو آت :

(خطبكن) والخطب يرد في القرآن الكريم للأمر العظيم

(فما خطبكم ايها المرسلون)

الملائكة طمأنت إبراهيم عليه السلام؛ فهي في مهمة لعقاب قوم مجرمين .

وموسى عليه السلام حين عاد إلى قومه، ووجد السامري قد صنع لهم عجلاً من الذهب

الذي أخذوه من قوم فرعون نجده يقول للسامري: (قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ)

وقول الملك هنا في الآية التي نحن بصدد ها

{قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ} .

يدل على أنه قد سمع الحكاية بتفاصيلها فاهتز لها؛ واعتبرها خطباً؛ مما يوضح لنا أن

القيم هي القيم في كل زمان أو مكان.

وبدا النسوة الكلام، فقلن:

{خَافَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سِوَاهُ}.

ولم يذكرن مسألة مُراوَدتهنَّ له، وكان الأمر المهم هو إبراء ساحة يوسف عند الملك .

وقولهن: {خَافَ لِلَّهِ ...} أي: نُنِزَهُ يوسُفَ عن هذا، وتنزيهنا ليوسف أمرٌ من الله. (٢٩)

وكذلك (المرادة) وهي الاحاح في الطلب ، ناسب هذا السياق أن نجد (لفظة توحى

بالمعنى وتصنع صورة بنفسها وهي : (حصص) .

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا أْبْرِيْ نَفْسِيْ ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوْءِ ۗ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي ۙ

غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ ﴿٥٣﴾ يوسف: ٥٣

قد لا تجد ما يشبه هذه الآية في البيان الأعلى ، من جهة حجاج التذليل ؛ فهي عبارة عن أربعة مقاطع ، كل مقطع منها سائر في التخاطب اليومي على حدة :

- ١- وما أبرئ نفسي (للتواضع واحتمالية ورود التقصير)
- ٢- إن النفس لأماراة بالسوء (للتشكيك وتبرير الخطأ)
- ٣- إلا ما رحم ربي (للندرة وتصدير القلة)
- ٤- إن ربي غفور رحيم (سيأتي الكلام عنها كيف وجهت هذه العبارة الخطاب القرآني)

والثلاثة الأولى جارية مجرى المثل ، والرابعة ليس كذلك ، لعدم استغنائه عما قبله ، وعدم استقلاله بإفادة المعنى (٣٠)

ولست بخائض بخلاف المفسرين : هل هذه العبارات على لسان يوسف عليه الصلاة والسلام ، أم على لسان امرأة العزيز ؟ لأنني لست بصده ، إنما بصدد الحجج وطرائق تشكيلها وهي على نحو مما سأذكر :

- ١- العلاقات التبادلية : وتقوم على معالجة وضعيتين إحداهما بسبيل من الأخرى معالجة واحدة ، وهو دليل على أنهما متماثلان بطريقة غير مباشرة : فقوله تعالى (وما أبرئ نفسي ... وقوله تعالى (إن النفس لأماراة بالسوء) وعليه فهي حجج عكسية
- ٢- حجج التعدية : يعتمد فيها توظيف العنصر الثالث انتاج علاقات لتأكيد صدق العنصرين السابقين ، فقوله تعالى (إلا ما رحم ربي) وصيغة التقليل الواردة في العنصر الثالث توثق صواب النفي الأماراة بالسوء التي يبدر منها الزلل والخطأ والتقصير
- ٣- حجاج الادماج : ويقوم على قاعدتين :

أ - ادماج الجزء في الكل أي ما ينطبق على الجزء ينطبق على الكل (ما أبرئ نفسي (نفس معينة أو خاصة (الجزء) ، (أن النفس لأمانة بالسوء) جنس النفس البشرية (الكل) وهو أسلوب حجاجي يسهم في التخفيف من وطأة الحكم على الجاني حينما يثبت أنه ليس الوحيد في هذا العالم الذي وسوست له نفسه ، وفيه دليل على أن القول لامرأة العزيز .

ب- تقسيم الكل إلى أجزاء : ليتسنى للمحاجج تحميل الاجزاء الشحنة الاقناعية (إلا ما رحم ربي) فالقليل النادر وهو جزء من الغالب الاعم من النفس البشرية لا يخطئ . ثم انظر إلى (ما) وهي لغير العاقل في التعبير اللغوي كيف توجه الخطاب : فالنفس البشرية يعبر عنها (بمن) لأنها لعاقل ، أما ورودها ب(ما) فربما قصد بها الملائكة ، وكأنها تقول النفس التي لا ترتكب المعصية هي نفس ملائكية . وقد اشار ابن الأنباري: حين قال: هذا استثناء منقطع^(٣١)، ناهيك عن البناء الحجاجي ونوع الأخبار المترجمة في النص القرآني حيث كانت البداية مع الخبر الابتدائي المنفي الخالي من المؤكدات (وما أبرئ نفسي) وهي محاولة لتأكيد الخبر في نفس المخاطب من دون توكيد لمصادفته ذهنا خاليا^(٣٢)، واللافت في البناء هو أن يعقبه خبر انكاري مثبت (إن النفس لأمانة بالسوء) مؤكدا ب(إن و اللام المترحلة) ؛ لأن المخاطب أنكر على صاحب الخبر خبره فاحتاج المخبر الى تكاثر عناصر التوكيد لتساعد أحوال الانكار^(٣٣) ، وهذا دليل آخر على ان القول ليس لسيدنا يوسف ؛ لأنه في موضع ترحيب لا انكار .

والسياق يعين على ذلك فالضمائر كلها في نسق واحد يدل عليه. وهو قول النسوة ما عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ وَقَوْلِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ أَنَا رَأَوْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ هذه خمسة ضمائر بين بارز ومستتر^(٣٤).

قيل: (هذا من تمام الاعتذار، قرنت الاعتذار بالاعتراف، فقالت ذلك أي قولي هذا وإقراري ببراءته: ليعلم أنني لم أخنه بالكذب عليه في غيبته، وإن خنته في وجهه في أول الأمر، فالآن يعلم أنني لم أخنه في غيبته، ثم اعتذرت عن نفسها بقولها وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي ثم ذكرت السبب الذي لأجله لم تبرئ نفسها، وهي أن النفس أمانة بالسوء.

فتأمل ما أعجب أمر هذه المرأة، أقرت بالحق واعتذرت عن محبوبها، ثم اعتذرت عن نفسها، ثم ذكرت السبب الحامل لها على ما فعلت، ثم ختمت ذلك بالطمع في مغفرة الله ورحمته، وأنه إن لم يرحم عبده وإلا فهو عرضة للشر)^(٣٥).

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ

خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴿٦٤﴾ يوسف: ٦٤

في قولك (الله خير حافظا) عندما يحيق بك المكر ، ويدهمك الخطر تستفرغ طاقتك ، وتستنفذ جهدك آخذا بالأسباب وتاركا أصل الحماية على رب الأسباب فهو خير حافظا ، لما تشعر هذه العبارة قائلها بالارتياح والطمأنينة وللكشف عن قابليتها الحجاجية في التذليل يمكننا أن ننظر إلى النص من خلال سياقه النقابلي ؛ فهي من العبارات التي (تستفاد من النص لزوماً ويقتضيها النص اقتضاء)^(٣٦)

فهي إما :

١- سؤال ذكر جوابه دون أن يذكر فقوله (هل ءامنكم عليه) اجابتها (لا آمنكم عليه) والدليل التشبيه التمثيلي بقوله (كما آمنتم على أخيه) فهم لم يصونوا الأمانة من قبل وقد أكد هذا المفاد ابو حيان بقوله (هَلْ ءَامَنُكُمْ، هَذَا تَوْقِيفٌ وَتَقْرِيرٌ. وَتَأَلَّمَ مِنْ فِرَاقِهِ بِنِيَامَيْنِ، وَلَمْ يُصْرَخْ بِمَنْعِهِ مِنْ حَمَلِهِ لَمَّا رَأَى فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصْلَحَةِ. وَشَبَّهَ

هَذَا الْإِئْتِمَانِ فِي ابْنِهِ هَذَا بِإِئْتِمَانِهِ إِيَّاهُمْ فِي حَقِّ يُوسُفَ. قُلْتُمْ فِيهِ: وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ، كَمَا قُلْتُمْ فِي هَذَا، فَأَخَافُ أَنْ تَكِيدُوا لَهُ كَمَا كِدْتُمْ لِدَلِكِ، لَكِنَّ يَعْشُوبَ لَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ كَمَا خَافَ عَلَى يُوسُفَ، وَاسْتَسَلَّمَ لِلَّهِ وَقَالَ: فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا^(٣٧).

٢- اعتراض رد النص عليه دون أن يذكر في اللفظ لكنه ملاحظ ذهننا : فقوله (الله خير حافظا ردا على قوله (إنا له لحافظون) فحفظهم خوف وحفظ الله أمن .وهي من التتمات التي يستدعيها اللزوم العقلي وقد سكت النص عنها^(٣٨) والله تعالى مَتَّصِفٌ بِأَنَّ حِفْظَهُ يَزِيدُ عَلَى حِفْظِ غَيْرِهِ كَقَوْلِكَ: هو أفضل عالم.^(٣٩) وَجُمْلَةٌ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةٍ فَأَرْسِلْ. وَأَكْذُوا حِفْظَهُ بِالْجُمْلَةِ الْإِسْمِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى الثَّبَاتِ وَبِحَرْفِ التَّوَكُّيدِ^(٤٠)..

وَجَوَابُ أَبِيهِمْ كَلَامٌ مُوجِبٌ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: إِنِّي أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ، وَأَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ مَاذَا أَفَادَ ائْتِمَانُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلِ حَتَّى أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ.

٣- محذوفات دل عليها التوازن : في قوله (وهو أرحم الراحمين) فأرجو أن يرحمني بحفظه، ولا يبتليني بفقده، كما ابتلاني من قبل يفقد أخيه يوسف، فرحمته واسعة، وفضله عظيم^(٤١).

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ ^ص الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ^ص وَهُوَ أَرْحَمُ

الرَّحِيمِينَ ﴿٩٢﴾ يوسف: ٩٢

قوله تعالى (لا تثريب عليكم) يذكرها صاحب العفو المقتردر على عقوبة المتجاوزين عطفًا على قصة يوسف عليه الصلاة والسلام وعفوه عند المقدرة ، وتيمنا بسيد الخلق

محمد عليه الصلاة والسلام عندما قال لقريش (لا تثريب عليكم) وثمة تناظر بين الشاهدين : فأخوة يوسف كادوا به كما كادت قريش برسولنا الكريم ، ولما تمكنا عليهما الصلاة والسلام سامحا قومهما، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بعضادتي باب الكعبة يوم الفتح فقال لقريش ما ترونني فاعلاً بكم قالوا نظن خيراً أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت فقال أقول ما قال أخي يوسف لا تثريب عليكم اليوم^(٤٢).

والذي يبدو لي أن هذا التناظر أسهم في سيورة هذا النص ووقد لوح ابن عاشور إلى هذا المعنى بقوله (الظَّاهِرُ أَنَّ مُنْتَهَى الْجُمْلَةِ هُوَ قَوْلُهُ: عَلَيْكُمْ، لِأَنَّ مِثْلَ هَذَا الْقَوْلِ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَى الْمَثَلِ فَيَبْنَى عَلَى الْإِخْتِصَارِ فَيَكْتَفِي بِ لَا تَثْرِيْبٍ مِثْلَ قَوْلِهِمْ: لَا بَأْسَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: لَا وَرَرَ [الْقِيَامَةِ: ١١] .

وَزِيَادَةُ عَلَيْكُمْ لِلتَّأْكِيدِ مِثْلَ زِيَادَةِ لَكَ بَعْدَ (سَقِيًّا وَرَعِيًّا) ^(٤٣)

لقد اختصر المجاز اللغوي كل الحكاية وجعلها اضمارات مسبقة في ذهن المخاطب لا تحتاج إلى تكرار ؛ إنما يكتفي قائلها ب (لا تثريب عليكم) والاصل فيها تجريد الذي يقع عليه اللوم من ماء وجهه كما تجرد الدابة من شحمها للهلز ، فهي استعارة مكنية مرشحة يسهل سوقها ويتبادر للذهن مفادها كما ذكر المفسرون في أصل الاستعارة (لَا تَثْرِيْبٍ عَلَيْكُمْ لَا تَأْنِيْبٍ عَلَيْكُمْ تَفْعِيلٌ مِنَ الثَّرْبِ وَهُوَ الشَّحْمُ الَّذِي يَغْشَى الْكَرْشَ لِلإِزَالَةِ كَالْتَجْلِيدِ، فَاسْتَعِيرَ لِلتَّقْرِيعِ الَّذِي يَمْزِقُ الْعُرْضَ وَيَذْهَبُ مَاءُ الْوَجْهِ^(٤٤) كَمَا أَنَّ التَّجْلِيْدَ وَالتَّقْرِيعَ إِزَالَةُ الْجِلْدِ وَالْقَرْعَ، لِأَنَّهُ إِذَا ذَهَبَ كَانَ ذَلِكَ غَايَةَ الْهَزَالِ، فَضَرَبَ مَثَلًا لِلتَّقْرِيعِ الَّذِي يَمْزِقُ الْأَعْرَاضَ، وَيَذْهَبُ بِهَاءِ الْوَجْهِ. الْفَعْدُ: الْفَسَادُ^(٤٥)

لعل من أبرز أشكال التماسك النصي ، الترابط الذي أحدثه التناظر^(٤٦) ؛ فالمطلع عفو
(لا تثريب عليكم)والمقطع دعاء لهم بالمغفرة (يغفر الله لكم)
والتتمة اثبات صفات الكمال المتمثلة بالرحمة (وهو أرحم الراحمين) .

خاتمة

إن التوجيه الجمالي لتراكيب البيان الأعلى يسوره الحذر ، إذ ليس للميول فيه متسع ،
ولا للأهواء فيه مرتع ؛ فأبي سماء تضل وأي أرض تقل من يضرب صفحا عن الحقيقة
ويجانب الصواب ؛ لذلك كان العمل معتمد على الانطلاق من مرجعيات معرفية ،
والاجتهاد ضمن هذه الآلية ، الذي حدا بي أن أضع نتائج لهذا الجهد :

١- من مقاصد اللغة أنها تضمن تواسلا أمثل بين المتخاطبين وإذا كان التذييل
سبيل للحجاج ، فإن القرآن الكريم قدم هذا الفن بأشكال مختلفة وأنماط متعددة ؛ ليتيسر
لكل قابلية تريد الحوار وتدافع عن قناعاتها .

٢- يعد حجاج التذييل في خطاب التنزيل عاملا مشتركا بين نظريتين هما الأشهر
في العصر الحديث وهما : الحجاج اللغوي والحجاج البياني إذ يتشكل فيه الخطاب بين
البلاغة واللسانيات .

٣- معلوم عند أهل الصنعة أن التذييل في الحجاج يكون تاليا ومتمما ، وهذا لا
خلاف فيه ، أما في خطاب التنزيل فقد قدم صورا مغايرة للمعتاد كشكل من أشكال
تجدد الخطاب و ملاءمة روح العصر ، ومثال ذلك في آية ٩٤ تساوقت بمفاصل
أربعة من البداية والمنتصف والنهاية كل مفصل كان تذييلا يؤدي دورا حجاجيا الهوامش

(١) كتاب الصناعتين ، أبو هلال العسكري ص ٢١

(٢) ينظر: البيان والتبيين ، الجاحظ ج ١ ص ١١

(٣) التداولية في الفكر النقدي ، د كاظم العزاوي ص ١١٩

- (٤) بلاغة الاقناع في المناظرة ، د عبد اللطيف عادل ص ٦٤
- (٥) تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر ، ابن أبي الاصبع ج ١ ص ٣٨٧
- (٦) بلاغة الحجاج ٨٧
- (٧)
- (٨) الكشاف ، الزمخشري ص ٢ ج ٤٥١
- (٩) ينظر : جواهر البلاغة ، السيد أحمد الهاشمي ص ٣١٥
- (١٠) ينظر : علم البديع ، عبد العزيز عتيق ص ١٢٥
- (١١) تفسير الشعراوي ، محمد متولي الشعراوي ج ١١ ص ٦٨٩٢
- (١٢) ينظر : مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، النسفي ص ٢ ج ١٠٦
- (١٣) ارشاد العقل السليم ، أبو السعود ص ٤ ج ٢٧٠
- (١٤) ينظر : الحجاج وتوجيه الخطاب ، د . باسم خيرى ٧٢
- (١٥) ينظر : السابق ص ٧٢
- (١٦) ينظر : ارشاد العقل السليم : ج ٤ ص ٢٧٠
- (١٧) ينظر : بلاغة الاقناع في المنظرة ص ٩٠
- (١٨) روح البيان ، اسماعيل الحنفي الخلوتي ج ٤ ص ٢٤٢
- (١٩) ينظر : تفسير المنار ، محمد رشيد رضا ج ١٢ ص ٢٣٨
- (٢٠) ينظر : التحرير والتنوير ، ابن عاشور ج ١٢ ص ٢٥٩
- (٢١) ينظر : بلاغة الاقناع في المناظرة ص ٩٠
- (٢٢) ينظر : نظم الدرر ، البقاعي ج ١٠ ص ٦٧
- (٢٣) ينظر : المحرر الوجيز ، ابن عطية ج ٣ ص ٢٥٣
- (٢٤) ينظر : الحجاج وتوجيه الخطاب ص ١٦٨
- (٢٥) ينظر : التداولية في الفكر النقدي ص ٢٧٨
- (٢٦) ينظر : التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ص ٩١
- ينظر : (٢٧) بحر العلوم ، السمرقندي ج ٢ ص ١٩٧
- (٢٨) ينظر : تفسير القرآن ، أبو المظفر السمعاني ج ٣ ص ٣٨
- (٢٩) ينظر : تفسير الخواطر ، محمد متولي الشعراوي ج ١١ ص ٦٩٨٩
- (٣٠) ينظر : جواهر البلاغة السيد أحمد الهاشمي ص ٢٠١
- (٣١) . ينظر : زاد المسير ج ٢ ص ٤٤٩

- (٣٢) ينظر :علم المعاني عبد الحفيظ حسن ص ٣٥
(٣٣) ينظر : السابق ٣٨
(٣٤) التفسير القيم ابن القيم ج ١ ص ٣٣٠
(٣٥) التفسير القيم ج ١ ص ٣٣١
(٣٦) قواعد التدبر الأمثل عبد الرحمن حبنكة الميداني ص ٢٤٣
(٣٧) ينظر : البحر المحيط ج ٦ ص ٢٩٥
(٣٨) ينظر : قواعد التدبر الأمثل ص ٢٤٣
(٣٩) ينظر : الدر المصون ج ٦ ص ٥١٨
(٤٠) ينظر :التحرير والتنوير ج ١٣ ص ١٦
(٤١) تفسير المراغي أحمد المراغي ج ١٣ ص ١٣
(٤٢) التتزيل وحقائق التأويل النسفي ج ٢ ص ١٣٢
(٤٣) التحرير والتنوير ج ١٣ ص ٥٠
(٤٤) أنوار التزيل وأسرار التأويل البيضاوي ج ٣ ص ١٧٥
(٤٥) البحر المحيط ج ٦ ص ٣١٧
(٤٦) التماسك والتناسب محمد أبو عامود ٣٧٢

روافد المسعى

القرآن الكريم

- ١- اعراب القرآن وبيانه ، محيي الدين درويش ، دار ابن كثير (دمشق - بيروت) ط ٤ ، ١٤١٥ هـ .
- ٢- أنوار التتزيل وأسرار التأويل ، ناصر الدين الشيرازي البيضاوي ، تحقيق محمد المرعشلي ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٨ هـ .
- ٣- بحر العلوم ، أبو الليث ابراهيم السمرقندي .
- ٤- البحر المحيط في التفسير ، أبو حيان الأندلسي ، تحقيق صدقي محمد جميل ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٢٠ هـ .
- ٥- بلاغة الاقناع في المناظرة ، د عبد اللطيف عادل ، دار عدنان ، بغداد ، ط ١ ٢٠١٣ م .
- ٦- البيان والتبيين ، عمر بن بحر الجاحظ ، مكتبة الهلال ، بيروت ، ١٤٢٣ هـ .

- ٧- تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان اعجاز القرآن ، أبو الاصبغ المصري ، تحقيق : د حنفي شرف ، القاهرة ١٣٨٣ هـ ، ١٩٦٣ م .
- ٨- التحرير والتتوير ، ، محمد الطاهر بن عاشور ، دار التونسية للنشر ، تونس ، ١٣٩٣ هـ .
- ٩- التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ، أنوار دجلة ، بغداد
- ١٠- تفسير القرآن ، أبو المظفر منصور السمعاني ، تحقيق ياسر بن ابراهيم و غنيم بن عباس ، دار الوطن ، الرياض ، السعودية .
- ١١- تفسير القران الحكيم ، محمد رشيد بن علي رضا ، الهيئة المصرية العامة للكتب ، ١٩٩٠ م .
- ١٢- تفسير القران الكريم ،محمد شمس الدين بن قيم الجوزية ، تحقيق مكتب البحوث والدراسات العربية والاسلامية ، مكتبة الهلال بيروت ، ط١ ١٤١٠ هـ .
- ١٣- تفسير المراغي ، أحمد المراغي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ط١ ، ١٩٤٦ هـ .
- ١٤- التماسك والتناسب ، محمد أحمد أبو عامود ، دار النابعة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م .
- ١٥- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، أحمد الهاشمي ، مؤسسة الصادق ، طهران ، ط٢ ، ١٣٨٣ هـ .
- ١٦- الحجاج وتوجيه الخطاب ، د باسم خيرى خضر ، دار صفاء للنشر والتوزيع ، عمان ، ط١ ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م .
- ١٧- الخواطر ، محمد متولي الشعراوي ، مطابع أخبار اليوم ، ١٩٩٧ م .
- ١٨- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، السمين الحلبي ، تحقيق أحمد الخراط ، دار القلم ، دمشق .
- ١٩- روح البيان ، اسماعيل الحنفي الخلوتي ، دار الفكر ، بيروت .
- ٢٠- زاد المسير في علم التفسير ، جمال الدين الجوزي ، تحقيق عبد الرزاق المهدي ، دار الكتاب العربي بيروت ، ط١ ١٤٢٢ هـ .
- ٢١- الصناعتين ، أبو هلال العسكري ، تحقيق : علي الجاوي ومحمد أبو الفضل ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤١٩ هـ .
- ٢٢- علم البديع ، عبد العزيز عتيق ، الآفاق العربية ، القاهرة ، ٢٠٠٦ م .

- ٢٣- علم المعاني دراسة نظرية تطبيقية ، عبد الحفيظ حسن ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠١٠ م .
- ٢٤- قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل ، عبد الرحمن حبنكة الميداني ، دار القلم ، دمشق ، ط ٦ ١٤٤١ هـ ٢٠٢٠ م .
- ٢٥- الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ، أبو القاسم الزمخشري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٧ هـ .
- ٢٦- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، أبو محمد بن عطية الاندلسي ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ١٤٢٢ هـ .
- ٢٧- مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، أبو البركات النسفي ، تحقيق يوسف علي بدوي ، دار الكلم الطيب ، بيروت ، ط ١ ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م .
- ٢٨- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، ابراهيم البقاعي ، دار الكتاب الاسلامي ، القاهرة .